



كان ديفيد تشيستر من جامعة فيرجينيا كومولث يدرس السلوكيات العدوانية، أدرك أن هناك الكثير من المشاعر التي تتفاعل داخل المرء قبل مباغته الآخرين بالهجوم، وأشار إلى هذه المشاعر باسم "الوسيط النفسي"، وهي الأفكار والمشاعر التي تطرأ بين الاستفزاز وبين التهجم على الآخرين. ويقول تشيستر: "قادني الفضول إلى معرفة كيف تدفع الإهانة المرء، على سبيل المثال، إلى الاعتداء على الغير". ويرى تشيستر أن الإجابة تكمن في الرغبة في الثأر. ويتابع: "ولهذا بعد أن كنت أحاول أن أفهم السلوك العدواني اتجهت إلى دراسة الثأر".

كشأن الكثير من الروايات على مر تاريخ، كان هاملت مدفوعا بالرغبة في الانتقام لمقتل والده

وقد اكتشف تشيستر وزميله ناثن ديوول من جامعة كنتاكي، أن الشخص الذي يتعرض للإهانة أو يكون منبوذا اجتماعيا، يشعر بالألم نفسي. ولهذا فإن المنطقة المختصة بالألم من الدماغ كانت في قمة نشاطها لدى المشاركين الذين انتهجوا سلوكا عدوانيا بعد أن شعروا أنهم منبوذون. ويقول شيستر: "هذا الألم يحرك نزعة تطورت لدى الإنسان منذ قديم الزمن للتهجم على الآخرين ردا على التهديدات والتعرض للأذى".

وفي دراسة لاحقة، دهش تشيستر من مدى تشابك العلاقة بين الألم النفسي واللذة. وبينما يشعر الشخص المنبوذ بالألم، فسرعان ما يكتسي الألم باللذة حينما تسنح لهذا الشخص الفرصة للانتقام، وهذا الشعور ينشط منطقة في الدماغ تسمى "النواة المتكئة" المسؤولة عن المكافأة. فقد اكتشف تشيستر أن أولئك الذين يتخذون من العنف وسيلة للتعبير عن غضبهم من الآخرين، ربما يتلذذون بالانتقام.

إن العلاقة بين العنف واللذة ليست جديدة، فقد أدرك سيغموند فرويد أن المرء يشعر بالراحة عندما يفرغ شحنة غضبه بالتعدي على الآخرين، ولكن فكرة أن الانتقام له لذته الخاصة لم تتضح إلا مؤخرا.

وأجرى تشيستر وديوول مجموعة من التجارب التي نشرت في جريدة علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الشخصية في مارس/ آذار 2017، حيث شارك مجموعة من الناس في لعبة رمي الكرة

والتقاطها، وبعد بضع مرات لم تصل الكرة للمشاركين ليشعروا أنهم منبوذون من اللعبة. ووضع كل المشاركين دبابيس في دمية افتراضية قطنية. ولوحظ أن من شعروا أنهم منبوذون وضعوا عدد أكبر من الدبابيس.

في البداية أجري اختبار النبذ الاجتماعي عبر الانترنت، ثم أجري فيما بعد في المعمل، حيث نفّس المشاركون عن مشاعر الانتقام في صورة صيحة عالية مزعجة في وجه منافسيهم، ولم يعرف المشاركون أن منافسيهم لم يكونوا إلا أجهزة كمبيوتر، وكلما زاد الشعور بالاستبعاد، طالت الصيحة.

وفي النهاية، لفهم دور العاطفة في تأجيج الرغبة في الثأر، أعطى تشيستر وديوول دواء لبعض المشاركين لتثبيت المزاج، ورغم أنه لم يكن إلا عقارا وهميا، إلا أن تأثيره كان من القوة بحيث لم يهتم المشاركون الذين حصلوا عليه بالثأر ممن نبذوهم، على عكس المشاركين الذين لم يأخذوا الدواء وتصرفوا بطريقة عدوانية. ويبدو أن السبب وراء ذلك أن من حصلوا على الدواء الوهمي اعتقدوا أنهم لن يشعروا بلذة إذا ثأروا ممن نبذوهم.

وتوصل الفريق إلى نتائج غير متوقعة، فالإنسان لا يجد في الثأر لذة فحسب، بل إنه يسعى للانتقام لكي يستعشر هذه اللذة. ويقول تشيستر: "تكشف هذه التجربة عن القدرة على تنظيم العواطف"، وقد نجحت التجربة، حتى أن الأفراد المنبوذين أحرزوا نفس الدرجات التي أحرزها غير المنبوذين في اختبارات المزاج.

إلا أننا يجب أن نتعامل بحذر مع هذه النتائج، ولم تجر دراسات أخرى على المدى الطويل لتقييم شعور المرء بعد أيام أو أسابيع من الانتقام. وتفترض النتائج التي توصل إليها تشيستر أن الباحثين عن الثأر لا يجنون إلا متعة لحظية فقط، ويقول تشيستر: "يشعر المرء بالراحة في لحظة الانتقام، ثم ينزل في حلقة مفرغة من الانتقام تتخذ شكل الإدمان، ليصبح حاله بعد الإنتقام أسوأ مما كان عليه قبله".

ولهذا قد يعمي الانتقام أبصار الناس عن العواقب الكارثية. وستظل ذكرى ضربة الرأس الشهيرة التي وجهها زين الدين زيدان لصدر المدافع ماركو ماتيرازي في كأس العالم عام 2006 تطارده طيلة

حياته. كما اشتهر ريتشارد نيكسون بأن لديه قائمة من الأعداء السياسيين الذين يسعى للتخلص منهم بطرق ملتوية. وقد أجبر على الاستقالة فيما بعد بسبب بعض الحيل غير الشريفة التي كان يتبعها.

وهذا يدعونا للتساؤل، لماذا استمر هذا السلوك الهدام جزءا من الشخصية البشرية مع تعاقب الأزمان رغم ما يسببه من مشاكل؟

ولكن مايكل ماكالاھ يرى أن الانتقام، رغم ما يقال عن أضراره، التي من بينها أنه قد يدمر علاقاتك الشخصية، فإن وجوده في حياتنا مفيد لبقائنا، لأنه سيصد عنك أذى الغير. وقياسا على ذلك، لو فكرت مثلا في التعرض لأحد المنخرطين في عالم الجريمة والعصابات، فلن تفلت من عقابه. ويقول تشستر: "فلو ذاع بين الناس أنك لا تتهاون في الثأر من الآخرين، لن يفكروا في التعرض لك أو استغلالك".

وفي فيلم "العائد" جسد ليوناردو دي كابريو شخصية أب ساعده تعطشه للانتقام في بقاءه على قيد الحياة، وحتى بعد أن أثخنه الجراح أخذ يجر جسده جرا وسط الأهوال والمخاطر للثأر من قاتل ابنه.

ويقول ماكالاھ: "فالشخص الذي يرد على الاعتداء بالمثل سيكون مرهوب الجانب وسينجح في حياته على عكس الشخص الذي يتلقى الإهانة ويصفح ليمادى المعتدي في الإيذاء والظلم".

ويرى ماكالاھ أن الانتقام يعد أحد الرغبات الأساسية التي يجب إشباعها، مثله كمثل الجوع. ولن يهدأ الثائر إلا بعد أن يحقق مراده، ويأخذ بالثأر، كما يشبع الناس شهيتهم للطعام.

ويستطرد ماكالاھ قائلا إن هذا لا يعني أننا علينا أن نشجع الناس على إطلاق العنان لرغباتهم في الانتقام، ولكن "علينا أن نتفهم الدافع للانتقام، وفي الوقت نفسه نتأكد من أن هذه الرغبة ليست وليدة عقول مريضة، وأن نبدي اهتماما بمساعدة الناس في كبح جماح رغباتهم في الانتقام"، على حد وصفه.

وقد توصلت دراسة أجريت عام 2006 إلى أن الرجال يجدون متعة في فكرة الانتقام أكثر من النساء. فعندما رأى المشاركون خصومهم الذين يخشون وهم يتلقون صدمة كهربائية نشطت منطقة المكافأة في الدماغ عند الذكور أكثر منها عند الإناث.

وفي دراسة أخرى أجريت عام 2008، توصلت أوزليم أيدوك من جامعة كاليفورنيا في بيركلي وزملاؤها إلى أن الاستجابة للنبت الاجتماعي تختلف بحسب أنماط الشخصية. فقد اكتشفت أيدوك أن بعض الناس أكثر تأثرا بالنبت الاجتماعي من غيرهم نظرا لما تعرضوا له من استبعاد ونبت في السابق.

ويشعر أولئك بالقلق والإحباط أكثر من غيرهم، وتقول أيدوك: "يتصور هؤلاء أنهم يتعرضون للنبت من الآخرين حتى لو يكن ذلك صحيحا. فيعد النبت الاجتماعي نوعا من التهديد الوجودي، ولهذا فإن توقع النبت من الآخرين يجعل المرء متأهبا عقليا ونفسيا للدفاع عن النفس، وهنا سيصبح السلوك العدواني تجاه الآخرين رد فعل طبيعيا للشعور بالنبت الاجتماعي.

إلا أن رد الفعل العنيف تجاه الآخرين ليس الوسيلة الوحيدة التي يلجأ إليها كل من يشعر أنه منبوذ من المجتمع، فالبعض يتعامل مع هذه المشاعر بتعمد إيذاء النفس. وتقول أيدوك: "هذا يجعلهم يشعرون أنهم يسيطرون على شيء ما".

ويمكن أن يتعلم الناس أساليب للتحكم في انفعالاتهم العنيفة تجاه الآخرين كما يتعلم المدمن التحكم في رغباته بأساليب نفسية. وفي إحدى الدراسات التي أجراها تشر وديوول ، لاحظنا نشاطا في القشرة الجبهية الأمامية الجانبية، المسؤولة عن التعقل وكبح السلوك الاندفاعي، لدى الأشخاص الذين تمكنوا من التحكم في انفعالاتهم الغاضبة. وتقول أيدوك: "نحن لا ننساق وراء دوافعنا الانتقامية. فقد تطورت لدى البشر مع الوقت هذه القشرة الجبهية الأمامية المعقدة لتكبح السلوك الاندفاعي وتوجهه في صورة نتائج مقبولة اجتماعيا".

ولذا فعندما تخطط للثأر ممن أساء إليك، تذكر أن السعادة التي ستجدها وأنت تتطلع إلى الأخذ بالثأر لن تدوم إلا للحظات. ومع ذلك، فقد اتضح أن مشاعر الثأر والرد بالمثل لها فائدة عظيمة،

وربما لو لم يُظهر الكثير من أسلافنا هذه المشاعر لاتخذهم الغير مطية لبلوغ مآربهم.